

المـحاضرة الخامـسة: مـصادر علم أصـول الدـعـوة وروافـده

إنَّ النهج الصحيح في العمل الدعوي هو المُستَقِي من المصادر التي حددتها الشرع، والتمسك بهذا النهج ضروري لكل داعٍ لازم له، وواجب عليه؛ لأنَّ الإسلام يقضي به، والواجب على المسلم أن يتمسَّك بما يقضي به الدين، كما أنَّ التزام هذا المنهج الصحيح يقرُّب من الغاية ويوصِّل إلى المطلوب، و يمكن إجمال هذه المصادر بالآتي: القرآن الكريم، السنة والسيرة النبوية المطهَّرة، سيرة السلف الصالح، استنباطات الفقهاء، تجارب العلماء والدعاة، فيما يأتي بيان مُوجز لكل منها:

أولاً: القرآن الكريم:

في القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بأخبار الرسل الكرام وما جرى لهم مع أقوامهم، وما خاطب الله تعالى به خاتمهم سيدنا محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمور الدعوة إليه، وهذه الآيات الكريمة يُستَقَّدَ العمل الدعوي ووسائله التي يجب أن يفقها المسلم كما يتقَّهُ أمور الدين الأخرى؛ لأنَّ الله تعالى ما قصَّها علينا وأخبرنا بها إلا لنسقيده منها، وننزد من معانيها ما يعيننا على الدعوة إلى الله، ونلتزم بنهجها، قال تعالى: «وَكُلًا نَفْصُلُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثْبِتُ بِهِ فُوَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَؤْعَظَةٌ وَدِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» [هود: ١٢٠]، أي أنَّ كل الأخبار التي قصَّها الله على سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنباء الرسل المتقدمين من قبله مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجَات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما يُثْبِت به قلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليكون له فيمن مضى من إخوانه المرسلين أسوة.

ولا شكَّ أنَّ المسلمين يقتدون برسولهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيما كان يتأسَّى به من سيرة المرسلين في أمور الدعوة إلى الله، قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَئِكَ الْأَلَّابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفَسَّرِي وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [يوسف: ١١١]، ففي قصص السابقين من أمم الأرض وما جرى عليهم وما جرى لأنبيائهم معهم عبرة وموعظة لأصحاب العقول السليمة، وهداية ورحمة للمؤمنين بالله ورسوله، فهم الذين يعتبرون بما قصَّه الله عن الماضين ويتعظون به؛ لأنَ الإيمان قد فتح قلوبهم للحق، وأرهف حسَّهم لمواضع العبرة ومعانِي الموعظة، وقال تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ أُفْتَدِهُ» [الأنعام: ٩٠]، فهذه الآية الكريمة تشير إلى لزوم الاقتداء بنهج رسول الله في الدعوة إليه.

ثانياً: السنة والسيرة النبوية المطهرة:

في السنة النبوية أحاديث كثيرة تتعلق بأمور الدعوة وأساليبها وسائلها، كما أنَّ السيرة النبوية المطهرة وما جرى لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في مكة والمدينة، وكيفية معالجته للأحداث والظروف التي واجهته، كل ذلك يعطينا مادَّةً غزيرة جَدًّا في العمل الدعوي؛ لأنَّ الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِمُخْتَلَفِ الظَّرُوفِ وَالْأَحْوَالِ التِّي يُمْكِنُ أَنْ يَمْرَّ بِهَا الدَّاعِي فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَمَا مِنْ حَالَةٍ يَكُونُ فِيهَا الدَّاعِي، أَوْ أَحْدَاثٍ تَوَجَّهُ إِلَيْهِ وَيَوْجُدُ نَفْسَهَا أَوْ شَبَهَهَا أَوْ قَرِيبُهَا فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَيُسْتَفِدُ الدَّاعِي مِنْهَا الْحَلُّ الصَّحِيحُ وَالْمَوْقِفُ السَّلِيمُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقْهُ إِذَا مَا فَقَهُ مَعْانِي السِّيرَةِ النَّبِيَّيَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ وَلَطْفِ لَطْفِهِ أَنْ جَعَلَ رَسُولَ الْكَرِيمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَمْرُّ بِمَا مَرَّ بِهِ مِنْ ظَرُوفٍ وَأَحْوَالٍ، حَتَّى يَعْرُفَ الدُّعَاءُ الْمُسْلِمُونَ كَيْفَ يَتَصَرَّفُونَ، وَكَيْفَ يَسْلُكُونَ فِي أَمْرَ الدِّعَوَةِ فِي مُخْتَلَفِ الظَّرُوفِ وَالْأَحْوَالِ اقْتِدَاءً بِسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

فالسيرة النبوية والتوجيهات النبوية تطبيقات عملية لما أَمَرَ اللهُ بِهِ رَسُولُهُ فِي أَمْرِ الدِّعَوَةِ وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، صَالِحةٌ لِلتَّطْبِيقِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ مَكَانٍ، وَفِي فَكِّ جَانِبِ مِنْ جُوانِبِ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّهَا سِيرَةٌ بُعِيدَةٌ عَنِ الْخِيَالَاتِ وَالْمَثَالِيَّاتِ، فَمَنْ أَرَادَ الْاقْتِداءَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا وَزَوْجًا، وَجَدَ فِي سِيرَتِهِ خَيْرًا مَثَلًا لَخَيْرِ رَجُلٍ وَخَيْرِ زَوْجٍ، وَمَنْ أَرَادَ الْاقْتِداءَ بِهِ دَاعِيَةً وَمُعْلِمًا، وَجَدَ فِي سِيرَتِهِ خَيْرَ الدِّعَاءِ وَقُدوَّةً مَعْلُومِينَ، وَمَنْ أَرَادَ الْاقْتِداءَ بِهِ إِمَامًا وَقَائِدًا، وَجَدَ فِي سِيرَتِهِ خَيْرًا قُدوَّةً فِي سِيَاسَةِ الْأَمْرِ وَتَدْبِيرِهَا، وَمَنْ هَنَا: قَامَتِ الْحَجَةُ بِهَا عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ عَلَى مُخْتَلَفِ مَسْتَوَيَّاتِهِمْ وَكَانَتْ مَنَارًا وَاضْحَى لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ الْاقْتِداءَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَانَ يَرْجُوُ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا، فَلَا يَجُوزُ لِلَّدَاعِي أَنْ يَغْفِلَ عَنْهَا.

ثالثاً: سيرة السلف الصالحة:

وفي سيرة سلفنا الصالحة من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان، سوابق مهمة في أمور الدعوة يستفيد منها الدعاة إلى الله تعالى؛ لأنَّ السلف الصالحة كانوا أعلم عن غيرهم بمراد الشارع وفقه الدعوة إلى الله، وما زال أهل العلم يستدلون بسيرتهم.

لقد أخبر الحق تبارك وتعالى بأنَّه رضي عن الصحابة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأنَّهم رضوا عنه، فقال تعالى: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَأْخُذُونَ رَضْنِي اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ

أن يتبع هذه الثلة المباركة من الصحابة رضي الله عنهم ويقتفي أثرها، فقوله تعالى: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ»، واضح في الدلالة على وجوب اتباع منهج الصحابة من السابقين الأولين والاهتداء بسيرتهم؛ لكونهم اتبوا و لم يبتدوا بالتحريف والتغيير؛ لذلك كان الصديق رضي الله عنه إذا لم يجد الحكم في الكتاب، والسنة يدعوا كبار الصحابة وعلماءهم، فإذا اجتمعوا على الأمر قضى به، وكذلك فعل الفاروق رضي الله عنه.

وقد خص النبي صلى الله عليه وسلم الخلفاء الراشدين الأربع: (أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي) رضي الله عنهم، بمزيد التأكيد اتباعهم، فوصف خلافتهم بأنها على منهاج النبوة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيْكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاصِيًّا ...)), الحديث، فهذه الأحاديث وصفت خلافة هؤلاء الأربعـة بخلافة النبوة، وأنـها على منهاج النبوة، فكانت سنتهـم متبـعةً كـسنـة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سيما فيما اتفـقوا عليهـ وسـنـوـهـ لـلنـاسـ مـنـ بـعـدـهـ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أوصـيـكـ بـتـقـوـيـ اللهـ وـالـسـمـعـ وـالـطـاعـةـ وـإـنـ عـبـدـاـ حـبـشـيـاـ فـإـنـهـ مـنـ يـعـشـ مـنـكـ بـعـدـيـ فـسـيـرـيـ اـخـتـلـافـاـ كـثـيرـاـ فـعـلـيـكـ بـسـتـنـيـ وـسـنـةـ الـخـلـفـاءـ الـمـهـدـيـيـنـ الرـاشـدـيـنـ تـمـسـكـوـ بـهـاـ وـعـضـوـاـ عـلـيـهـاـ بـالـنـوـاجـدـ وـإـيـاـكـمـ وـمـحـدـثـاتـ الـأـمـوـرـ فـإـنـ كـلـ مـحـدـثـ بـدـعـةـ وـكـلـ بـدـلـةـ ضـلـالـلـةـ))، رواه أبو داود.

رابعاً: استنباطات الفقهاء والعلماء:

إن الدعوة الإسلامية ليست نصوصاً جامدة، ولا تقتصر على الأعمال والأحكام الثابتة، وإنما هي بجانب ذلك أفهمـ بـشـرـيةـ، واستنبـاطـاتـ عـمـلـيةـ، وموـازـنـاتـ دـقـيقـةـ لا يـحـسـنـهاـ إـلاـ أـهـلـهاـ، وـمـنـ لـهـذهـ المـواـزـنـاتـ وـالـأـفـهـامـ، إـلاـ الـعـلـمـاءـ الـذـيـنـ هـمـ وـرـثـةـ الـأـنـبـيـاءـ عـلـيـهـمـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ، فـقـدـ جـاءـ فـيـ الـحـدـيـثـ: ((الـعـلـمـاءـ وـرـثـةـ الـأـنـبـيـاءـ))، رواه أبو داود والترمذـيـ، فـهـمـ يـعـنـونـ باـسـتـبـاطـ الـأـحـكـامـ الـشـرـعـيـةـ الـعـلـمـيـةـ مـنـ أـدـلـتـهـ الشـرـعـيـةـ، وـمـنـ هـذـهـ الـأـحـكـامـ ما يـتـعـلـقـ بـأـمـوـرـ الدـعـوـةـ إـلـىـ اللـهـ، مـثـلـ أـحـكـامـ الـأـمـرـ بـالـمـعـرـوفـ وـالـنـهـيـ عـنـ الـمـنـكـرـ، وـالـجـهـادـ، وـالـحـسـبـةـ...ـالـخـ، وـقـدـ أـفـرـدـوـ لـهـذـهـ الـأـحـكـامـ أـبـوـابـاـ خـاصـةـ فـيـ كـتـبـهـمـ الـفـقـهـيـةـ؛ـ لـأـنـ الـوـسـائـلـ وـالـأـسـالـيـبـ فـيـ الدـعـوـةـ مـنـ أـمـوـرـ الـدـيـنـ، شـأـنـهـ شـأـنـ:ـ مـسـائـلـ الـعـبـادـاتـ وـالـمـعـاملـاتـ.

خامساً: التجارب الشخصية وواقع العلماء والدعاة:

التجربة معلم جيد للإنسان، لا سيما لمن يعمل مع الناس، فيكتسب الداعي تجارب كثيرة في مجال الدعوة هي حصيلة عمله المباشر مع الناس، و مباشرته للوسائل فعلاً في ضوء ما فهمه من المصادر السابقة؛ لأنَّ التطبيق قد يظهر له وجه خطئه فيتجنبه في المستقبل، وقد يكون الثمن غالياً، ولكن ما يتعلمه من التجارب أغلى من الثمن المدفوع إذا انفع من التجارب حقاً، وهذا هو المأمول من المؤمن، فإنَّ المؤمن لا يلدع من حجر مرتين.. وكما أنَّ الداعي يستفيد من تجاريـه الخاصة، يستفيد أيضاً من تجـارب الآخرين في مجال الدعـوة ووسائلها وأساليـبها، فإنَّ الحـكمة ضـالة المؤمن يأخذـها من أيِّ وعـاء خرجـت.

لذا تُعدُّ تجارب علماء السلف ودعـاتهم وموافقـهم في الواقع الدعـوية، مـصدراً مهمـاً من مـصادر الداعـية، يـعيـثـه على فـهم المصـادر السـابـقة، واستـباط الأـحكـام منـها؛ لأنـها طـبـيقـاتٌ عمـلـية لـمنهج الله ورسـولـه، ولكن مع أهمـية هـذه التجـارب والـواقع وـعظـيم فـائـتها، فإنـها تـبـقـى اـجـهـادـات يـسـتفـادـ منها في ضـوء المصـادر الأـصـلـية السـابـقة؛ لأنـها اـجـهـادـات بـشـرـية تـُخـطـى وـتـُصـيبـ.

ومع التـأـكـيد على أولـويـة وأهمـيـة وقـائـع علمـاء السـلف وـدعـاتهم، فإنـه لا يـنـبـغـي للـدـعـاة أن يـزـهـدوا بـوقـائـع علمـاء عـصـرـهم، وتـجـارـبـ الدـعـاةـ الـمـعاـصـرـينـ، فقد يـكـونـ فيهاـ منـ الـوـقـائـعـ وـالـأـحـدـاثـ ماـ يـشـابـهـ وـقـائـعـ العـصـرـ الـذـيـ يـعـيشـونـ فـيهـ، وماـ هوـ أـكـثـرـ مـطـابـقـةـ لـهـاـ، فـكـلـماـ تـقـارـيرـ الـعـصـورـ تـشـابـهـتـ الـوـقـائـعـ وـالـأـحـدـاثـ فـيهـ، وـالـعـلـمـاءـ الـمـوـتـقـونـ فـيـ كلـ عـصـرـ هـمـ أـدـرـىـ النـاسـ بـاـحـتـيـاجـاتـ عـصـرـهـمـ، وـبـالـأـسـالـيـبـ الـنـافـعـةـ فـيهـ، فـيـطـلـعـ الـدـاعـيـةـ عـلـىـ اـجـهـادـاتـ السـابـقـينـ وـالـمـعاـصـرـينـ منـ أـهـلـ الدـعـوةـ فـيـمـاـ طـرـأـ منـ مشـكـلاتـ وـمـاـ وـاجـهـهـمـ منـ عـقـبـاتـ، بـصـرـفـ النـظـرـ عـنـ اـنـتـمـائـهـمـ أوـ مـنـهـجـهـمـ الدـعـويـ أوـ تـخـصـصـهـمـ الـعـلـمـيـ، ليـتـمـكـنـ الـدـاعـيـةـ منـ الـوـقـوفـ عـلـىـ الرـاجـعـ مـنـ الـأـقوـالـ وـالـمـنـاسـبـ مـنـ الـمـوـاقـفـ.

وآخر دعوانا أـنـ الحـمـدـ لـهـ رـبـ الـعـالـمـينـ
وـصـلـلـ اللـهـ وـسـلـمـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ وـعـلـىـ آـلـهـ وـصـحـبـهـ أـجـمـعـينـ